الفصل السادس

المذابح والحرب النفسية

المذابح والحرب النفسية

أنشأ العرب اللجنة العربية العليا فى إبريل ١٩٣٦ وقد دعت إلى إضراب عام يدوم حتى نهاية الهجرة الصهيونية، وحتى يتم إيقاف تمليك الأراضى، كما دعت لإنشاء فلسطين حرة مستقلة، وانتشر العنف بشكل ملحوظ. وأمام هذا الوضع قرر الإنجليز أن يرسلوا لجنة فى نوفمبر ١٩٣٦ وفى تقريرها الذى سلمته فى يوليو ١٩٣٧ تبنت حكمة سليمان وأوصت بالتقسيم.

ورغم أن خطة التقسيم سوف توضع على الرف فيما بعد، فقد رفعت الطموح الصهيونى، وصارت مقياسًا للإنجازات اللاحقة. وفى إبريل ١٩٤٧ بناء على طلب الإنجليز عقدت الجمعية العمومية اجتماعًا طارئًا، وقررت أن ترسل لجنة تحقيق من الأمم المتحدة إلى فلسطين، وجاء فى توصيات اللجنة: يأخذ الصهاينة ٥٦٪ من الأرض التى كانت معظمها صالحة للزراعة، أما الدولة الفلسطينية فتأخذ ٤٣٪ من الأرض، برغم أن اليهود عام ١٩٤٨ لم يمتلكوا غير ٦,٦٪ من فلسطين، وفى ١٩٤٧/١١/٢٩ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على خطة التقسيم التى اقترحتها، وأوصت الجمعية بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين: يهودية وعربية، وأصبحت القدس عاصمة دولية، ولم يقبل العرب هذه الخطة حيث ندد المندوبون العرب فى الجمعية العامة بدور الأمم المتحدة فى فرض مثل هذا المشروع ضد رغبة العرب.

وفور الموافقة على قرار التقسيم أعلن الإنجليز أمام تصاعد الأعمال الهجومية الشبيهة بالحرب الأهلية ضد بريطانيا أنهم ينهون الانتداب فى فلسطين وأنهم سيغادرون المنطقة فورًا، وانتهى الانتداب البريطانى فى ١٩٤٨/٥/١٥ وبدأت الأمم المتحدة فى الإشراف على عملية التقسيم.

والواقع أن قرار التقسيم قد صادر بدوره حق تقرير المصير للفلسطينيين، مع أنهم كانوا يمثلون أغلبية السكان وقت صدوره، وكانت الأغلبية تعارض بشدة قرار التقسيم، ولا يمكن القول بأن رفض العرب له قد أثر على وجوده أو على استمرار الوضع على النحو الذى سار عليه فيما بعد. وقد أنشأت مصر حكومة عموم فلسطين، وجعلت مقرها قطاع غزة حتى لا تنتهى القضية الفلسطينية، ولكى يضم إليها ما يتحرر من الأراضى الفلسطينية بعد ذلك، على خلاف الأردن التى ضمت الضفة إلى أراضيها، وإن تخلت عن هذا الضم بعد ذلك[1].

إن قرار التقسيم ١٨١الصادرمن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م باطلا للأسباب التالية:

- مخالفة قرار التقسيم للمادة الأولى الفقرة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة الخاصة بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب، وهو من المبادئ العامة فى القانون الدولى التى لا يجوز مخالفتها، ولا الاتفاق على مخالفتها طبقا للمادة (٣٤) من اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات لعام ١٩٦٩م.
- مخالفة قرار التقسيم ١٨١ للمادة ١٠ من ميثاق الأمم المتحدة التى تخولها حق التقدم بتوصيات دون اتخاذ القرارات.
- إن قرار التقسيم رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧م مشوبًا بالبطلان؛ لأن هذا القرار لم يكتسب الدرجة القطعية ويصبح قراراً نهائيًا بالنسبة لإجراءات الأمم المتحدة، وقد قام مجلس الأمن والجمعية العامة بإلغائه ووقف تنفيذه حيث قرر مجلس الأمن بتاريخ ١٩/ ٣/ ١٩٤٨م بالقرار رقم ٢٧ وأفاد بأن مجلس الأمن ليس لديه الاستعداد لتنفيذ قرار التقسيم رقم ١٨١ ويوصى بإعادة القضية الفلسطينية للجمعية العامة، وفرض وصاية مؤقتة على فلسطين تحت وصاية مجلس الأمن ولكن هذا الإجراء لم ينفذ كليًا

---

(١) جعفر عبد السلام، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٢.

أو جزئيًا، إضافة إلى ذلك أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م قرارها الثانى المتضمن إعفاء لجنة فلسطين من أية مسؤوليات نصت عليها المادة ٢ من قرار التقسيم ١٨١ والعمل على إجراء تسوية سلمية لمستقبل الوضع فى فلسطين.

- قرار التقسيم ١٨١ لسنة ١٩٤٧م لا يشمل تدويل مدينة القدس؛ لأنه نص فى الجزء الثالث منه الفقرة الثالثة على أن هدف نظام التدويل بالدرجة الأولى هو حماية المصالح الروحية والدينية للأماكن المقدسة التابعة للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية، والموجودة داخل مدينة القدس، بحيث يسود نظام دينى خاص، وليس إصباغ أى شرعية لغير الطرف صاحب الأرض وهم الفلسطينيون.

وبناء على ما ذكر فإن السيادة على مدينة القدس تبقى من وجهة نظر القانون الدولى عائدة للشعب الفلسطينى رغم وجود الاحتلال الإسرائيلى على هذه المدينة، ولا يمكن الاعتراف لإسرائيل بالسيادة على أى جزء من مدينة القدس؛ لأنه مخالف لقاعدة عامة فى القانون الدولى تقضى بعدم إلزام المجتمع الدولى بالاعتراف بأى مكاسب أو تغييرات إقليمية تنجم عن استخدام القوة، وهو مبدأ تحريم الاستيلاء على أراضى الغير بالقوة، الوارد فى إعلان مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الودية وفق ميثاق الأمم المتحدة، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٠م والذى نص على أن: أى اكتساب إقليمى ينجم عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها لن يعترف به كعمل قانونى؛ لأن الاحتلال لا يولد الحق.

- إن القانون الدولى يهدف فى جوهره تحقيق رسالة اجتماعية وسياسية، ومن هنا يتبين أن القواعد القانونية الآمرة جاءت متضمنة الإلزام كونها تمس هذا الجوهر فى سبيل مصلحة المجتمع الدولى بالحفاظ على الأمن والسلم الدوليين. من الواضح أن إسرائيل خرقت مبدأ احترام السيادة،

ومبدأ منع اللجوء إلى استعمال القوة فى العلاقات الدولية ومبدأ عدم جواز احتلال أراضى الغير بالقوة، تلك المبادئ ما هى إلا قواعد قانونية آمرة وملزمة لجميع أعضاء الأمم المتحدة بعدم مخالفتها، رتب القانون الدولى جزاءً لخرقها فى مقدمتها بطلان التصرف المخالف بطلانًا مطلقًا وعدم الاعتراف بما نتج من أوضاع إقليمية غير مشروعة، وهذا واجب قانونى يقع على عاتق جميع الدول حتى ولو لم يلحق بهذه الدول ضررًا، وقد تأيد ذلك فى الرأى الاستشارى الصادر عن محكمة العدل الدولية لعام ١٩٧١م المتعلق بإقليم ناميبيا حيث جاء فيه: إن الأمم المتحدة تعتمد على الدول الأعضاء فيها فى ضمان تنفيذ ما تتخذه من تدابير إزاء وضع غير مشروع من الناحية الدولية.

إن مجلس الأمن خالف القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة عندما أقر لقوات الاحتلال الإسرائيلية بحقوق على الأراضى الفلسطينية من النهر إلى البحر بما فيها القدس، رغم العديد من القرارات التى صدرت فى مواقف معينة بعدم الموافقة على الأفعال والقرارات التى تصدرها قوات الاحتلال الإسرائيلية إلا أنها لم تأخذ طريقها للتطبيق.

وفى إطار الحرب النفسية شن اليهود هجمات مفاجئة ضد المدنيين، وكانت إذاعة الهاجانا السرية تذيع باللغة العربية وتهدد بشكل عنيف العرب وتشرح لهم ما يجب عمله للفرار، ولتأكيد هذه التهديدات النفسية كانت تتزامن معها عمليات وحشية بشكل يؤدى إلى تعجيل هجرة سكان المدن والأرياف.

وكان أكثر أساليب الحرب النفسية شيوعًا هو أسلوب استخدام مكبرات الصوت والإذاعات لخلق جو من الذعر بين سكان قُضى على قياداتهم أثناء الثورات المتكررة السابقة، ولا سيما بعد قمع ثورة عام ١٩٣٦م ضد الاحتلال البريطانى. وعلى سبيل المثال: فقد حذر راديو الهاجاناه العرب يوم ١٩ فبراير عام ١٩٤٨ من أن الزعماء العرب سيتجاهلون أمرهم. وفى الساعة السادسة من مساء

يوم ١٠ مـارس أذاع الراديو أن "الدول العـربيـة تتـآمـر مع بـريطانيـا ضـد الفلسطينيـين". وفى الساعـة السادسة من مـساء يوم ١٤ مـارس عام ١٩٤٨ أذاع الراديو "إن سكـان يافـا فى حـالة ذعـر كـبـيـرة، إلى درجـة أنـهم ظلوا داخل منازلهـم". وأشار الكاتب اليهودى "هارى ليفـين" فى مذكراته إلى البيان، الذى كان قد سـمعه يوم ١٥ مـايو أثناء إذاعته من عربات مكبـرات الصوت الصهيـونية باللغة العربية، والذى كـان يحث العرب على "مغادرة الحى قبل الساعـة الخامسة والربع صباحًا"، ثم نصحهم بقوله: "ارحموا زوجاتكم وأطفالكم، واخرجوا من حمام الدم هذا... اخـرجوا من طريق أريحا، الذى ما زال مفتـوحًا. وإن مكثتم هنا، فإنكم بذلك سـتجلبون على أنفـسكم الكارثة"، وقد تحولت أيضًـا مكبرات الصوت التـابعة للهاجاناه فى جـميع أنحاء "حـيفا"، تهدد الناس، وتحـثهم على الفرار مع أسرهم[1].

والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف استطاع اليـهودى التائه الذى كان يستجيب طوال حياته عبـر قرون عديدة إلى الاضطهاد، والهجوم عليه وتحـقيره، إما بموقف ذليل خانع يتسم بالماسـوشية[2]، أى أنه يطيب نفسًا بالعـذاب والمهانة، ويسعى لا شعوريًا فى طلبها، أو يستجـيب بالرحيل والهجرة إلى مكان آخر يتصوره أقل ألمًا؟ كيف أمكن له بعـد تاريخ طويل حافل بالاستكانة والامـتناع عن مجرد المقـاومة، فينعزل متـخذًا منازل على هامش المجتمع يقال لها: "الجـيتو" كيف ولما تم له أن يجتمع بأمـثاله فى حشد كـبير يتفـجر نشاطًا عدوانيًا على نـطاق محدود فى أول الأمر، ثم يتـخذ شكل عصـابات متحـفزة جريئة تنزل بـجنود دولة الانتداب على

---

(١) راجع المسيرى، مرجع سابق، ج٧، ص٥٧.

(٢) الماسـوشيـة أو المازوخيـة: تنسب إلى الكاتب النمـساوى "سـاخر مـازوخ" (١٨٣٦ - ١٨٩٥)، وهى عبـارة عن اشتقاق الفـرد لذة من قيام الآخرين بتـعذيبه وتوجيـه العدوان إليه، سواء أكان عدوانًا مـاديًا كالضرب والإيذاء البدنى، أم عدوانًا معنويًا كتـحقير الفرد وإهانته والسخرية منه وعدم اعتبار مشاعره.

فلسطين ضربات متلاحقة عنيفة، ما لبثت أن اتخذت المواطنين العرب بفلسطين هدفًا لها، فكانت مذبحة دير ياسين، وكفر قاسم وغيرها. وفى خطوة تالية تجمعت العصابات فى شكل جيش نظامى أو شبه نظامى ليصد هجوم الجيوش العربية[1].

فى عام ١٩٤٩م نشر الباحث السيكولوجى "أنطون لوريه" مقالاً بعنوان: "اليهودى كنمط سيكولوجى"، ويقوم بحثه على تصنيفه الذاتى لملاحظاته الشخصية كمتخصص فضلاً عن استخدامه لأسلوب المقابلة الشخصية، ويخلص الباحث إلى عدة سمات سيكولوجية أساسية تميز هؤلاء اليهود، حيث يبدو العدوان وقد انحرف عن هدفه الطبيعى التدميرى، وانقلب إلى توق شديد للتفوق له طبيعة طفلية شبيهة بغيرة الأشقاء، ويرتبط ذلك التوق إلى التفوق بتمركز غريب حول الذات يدفع إلى إضفاء الطابع الشخصى على كافة الأمور، وكثيراً ما يعبر عن نفسه فى سلوك غير عقلانى[2].

ويوضح "ميخائيل إيلكينز" فى كتابه "فتية صهرهم الغضب" بما لا يدع مجالاً للشك فى أن التعرض لخبرة معسكرات الاعتقال النازية قد أنتجت نماذجًا يهودية قتالية أشد تمسكًا بنمط الحياة الجماعية على مستوى الممارسة القتالية، ويقرر أن التوافق الاجتماعى للناجين من العسف النازى فى إسرائيل قد حقق من النجاح ما يفوق تحققه فى أى بلد آخر، فهؤلاء المهاجرين لهم هدف واضح يمكنهم من استخدام عدوانيتهم المخزونة ألا وهو: "نضال مشترك لتأسيس الدولة"[3].

إن تفسير أى سلوك - سليمًا كان أو مريضًا - إنما يرتد إلى نمط علاقة الفرد بالآخرين، أى نمط بناء الشخصية، وهذا يرتد فى النهاية إلى ما نطلق عليه "هوية

---

(١) مصطفى زيور (د.ت). فى النفس: بحوث مجمعة فى التحليل النفسى، ص١٢١ .

(٢) قدرى حفنى، مرجع سابق، ص ٢٢٧ .

(٣) راجع قدرى حفنى، ص٢٤٠ .

الذات" والتى هى نتاج عمليات التوحد بالآخرين، والتى تبدأ منذ الشهور الأولى من الحياة، فبناء الأنا توضع لبناته الأولى على غرار مكونات الأنا لدى من قام على شئون الصغير، أى الأم والأب، ثم يكون التوحد بمن يتصل بهم الصبى اتصالاً وثيقًا فى سنوات الطفولة المتأخرة حتى يناهز سن النضج.

ونحن لا يخامرنا أى شك فى أن الصبية والشباب الذين قُبض عليهم مع آبائهم وأودعوا المعتقلات النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، قد توحدوا[1] بجلاديهم، وهى حيلة لا شعورية يطلق عليها: "التوحد بالمعتدى"، ولعل شخصية السفاح "بيجن" الذى اشتهر بالفتك بسكان القرى بما فيها من نساء وأطفال أبرز نموذج فى التوحد بالمعتدى من القتلة النازيين، ومثله السفاح "شارون". كما أن شخصية "ديان" تمثل التقمص للعسكرية النازية أحسن تمثيل بما فيها من صلف وخيلاء وعدوان ذى طابع بارانوى. وإذا كان الجيش يرتبط فيه أفراده ببعضهم البعض فى صورة توحد بالقائد فإن الشعب الإسرائيلى بعامة يتوحد بهاتين الشخصيتين: الشخصية العسكرية ممثلة فى شخص "ديان" ومن يأتى على شاكلته، وشخصية السفاح ممثلة فى شخص "بيجن وشارون وغيرهما"[2].

فهذا اليهودى التائه كان يفتقر إلى هوية مستقرة، كان يفتقر إلى شرعية الوجود، وهاهو ينتزعها على نحو غير متوقع يفصح عنه بولائه لإسرائيل قبل ولائه للبلد الذى عاش واستوطن فيه. ويتضح السر فى دولة تنقصها أبسط

---

(١) التوحد Identification هو حيلة لا شعورية من حيل التوافق تلجأ إليها النفس البشرية بشكل لا شعورى ودون أن يعى الفرد أنه يقوم بعملية توحد، وفى هذه الحالة يستدمج الفرد داخل ذاته دوافع واتجاهات وسمات شخص آخر، بحيث تصبح هذه الدوافع أصيلة فى كيان الفرد، تضرب جذورها فى أعماق بنائه النفسى، وعلى ذلك فالتغير الذى يحدث فى الفرد نتيجة توحده لا يكون مؤقتًا ولا مفتعلاً كالذى يحدث فى موقف التمثيل أو المحاكاة (راجع: فرج طه وآخرون، موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، ص٤٢٤).

(٢) مصطفى زيور، مرجع سابق، ص١٢٥ - ١٢٦ بتصرف.

مقومات الدولة: إشتراك أفرادها فى الثقافة والقيم الحضارية واللغة، فالسر هنا إنما يرجع - سيكولوجيًا - إلى تحول اليهودى فى فلسطين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى طاغية بعد مذلة، وسفاح بعد خناع، عن طريق التوحد بالمعتدى وتنظيم هذا التوحد تنظيمًا جعل منه شريعة المجتمع الإسرائيلى، وهو الرباط الذى يجمع شتاته ويخفى تناقضاته ويمنح أفراده شبه هوية مستقرة تكتم ما فى أعماق كل منهم من خواء وتصدع فى بنيان الأنا[1].

إن الحرب النفسية هى دفاع عن البناء النفسى بالمعنى الذى بيَّناه، لا بالمعنى العادى المألوف، فهى مسألة حياة أو موت نفسانى، ولعلها أشد من الحرب الفعلية فى ساحة القتال، ذلك أن الحرب الفعلية لا تترك للفرد الإسرائيلى فرصة مواجهة نفسه، تلك المواجهة التى يخشى أن تفضح قناع هويته المستعارة. وقد استغلوا موضوع الحرب النفسية هذا فكانت المذابح الإسرائيلية للأطفال والنساء والشيوخ وإحراق المنازل على سكانها، حرب نفسية وتخويف للبقية التى سوف تنجو لتفر بعيدًا عن الأرض. ومن هذه المذابح:

مذبحة قرية سعسع:

مذبحة قرية سعسع (١٤ ـ ١٥ فبراير ١٩٤٨): شنت كتيبة "البالماخ" الثالثة هجومًا على قرية "سعسع"، فدمرت (٢٠) منزلاً فوق رؤوس سكانها، وأسفر ذلك عن مقتل ٦٠ فردًا معظمهم من النساء والأطفال.

مذبحة رحوفوت:

مذبحة رحوفوت (٢٧ فبراير ١٩٤٨): حدثت فى مدينة "حيفا" قرب "رحوفوت" حيث تم نسف قطار القنطرة الأمر الذى أسفر عن استشهاد (٢٧) عربيًا وجرح ستة وثلاثين آخرين.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨ .

مذبحة كفر حسينية:

مذبحة كفر حسينية (١٣ مارس ١٩٤٨): قامت "الهاجاناه" بالهجوم على القرية وقامت بتدميرها وأسفرت المذبحة عن استشهاد ثلاثين عربيًا.

مذبحة بنياميناه:

مذبحة بنياميناه (٢٧ مارس ١٩٤٨): حدثت مذبحتان فى هذا الموضع حيث تم نسف قطارين، أولهما نُسف فى (٢٧) مارس وأسفر عن استشهاد (٢٤) فلسطينيًا عربيًا وجرح أكثر من (٦١) آخرين، وتمت عملية النسف الثانية فى (٣١) من نفس الشهر حيث استُشهد أكثر من (٤٠) عربيًا وجُرح (٦٠) آخرون.

مذبحة دير ياسين:

فى ٩/ ٤/ ١٩٤٨ شنت فرقة مكونة من (١٣٢) شخص ينتمون إلى قوات "إيرجون وشتيرن" التى كانت تدعمها مدفعية الهاجانا هجومًا على قرية دير ياسين فى غرب القدس. وفى ظهر اليوم التالى للهجوم تم ذبح (٢٥٤) مواطنًا فلسطينيًا بما فى ذلك امرأة وطفل ورش الجثث بالكيروسين وحرقها. وكانت نتيجة ذلك انتشار الرعب والهلع فى القرى المجاورة التى فر منها سكانها فور العلم بهذه المجزرة. وكانت المنظمات الصهيونية المسئولة عن المجزرة تقوم بذلك بأمر من رجلين سوف يصبحان فى المستقبل من رؤساء وزارة إسرائيل: مناحم بيجن زعيم منظمة إيرجون من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٨، وإسحاق شامير نائب القائد فى منظمة شتيرن[١]. وتعتبر مذبحة "دير ياسين" من أهم المذابح الصهيونية وأكثرها منهجية ومع هذا لم تكن "دير ياسين" سوى جزء من نمط أعم: القيام بمذابح ذات طابع إبادى محدود، يتم الإعلان عنها بطريقة درامية لتبث الذعر فى نفوس العرب الفلسطينيين فيهربون. وبذا تتم عملية التطهير العرقى وتصبح فلسطين أرضًا بلا

---

(١) أنظر: مايكل بريور، مصدر سابق، ص ١٦٩ - ١٧٠.

شعب. كما كانت فرق الإرهاب الصهيونية تنفّذ بعض المذابح للانتقام ولتلقين العرب الفلسطينيين درسًا فى عدم جدوى المقاومة. وقد أرسل "مناحم بيجين" برقية تهنئة إلى "رعنان" قائد الإرجون المحلى قال فيها: "تهنئتى لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك إنهم صنعوا التاريخ فى إسرائيل". وفى كتابه المعنون "الثورة" كتب "بيجين" يقول: "إن مذبحة دير ياسين أسهمت مع غيرها من المجازر الأخرى فى تفريغ البلاد من (٦٥٠) ألف عربى". وأضاف قائلاً: "لولا دير ياسين لما قامت إسرائيل"[١].

مذبحة ناصر الدين:

مذبحة ناصر الدين (١٤ أبريل ١٩٤٨): اشتدت حدة القتال فى مدينة "طبرية" بين العرب والصهاينة، وكان التفوق فى الرجال والمعدات فى جانب الصهاينة منذ البداية. وجرت محاولات لنجدة مجاهدى "طبرية" من مدينة "الناصرة" وما جاورها. وجاءت أنباء إلى أبناء البلدة عن هذه النجدة وطُلب منهم التنبه وعدم فتح النيران عليها. ولكن هذه الأنباء تسربت إلى العدو الصهيونى الذى سيطر على مداخل مدينة "طبرية" فأرسلت منظمتا "ليحى والإرجون" فى الليلة المذكورة قوة إلى قرية "ناصر الدين" يرتدى أفرادها الملابس العربية، فاعتقد الأهالى أنهم أفراد النجدة القادمة إلى طبرية فاستقبلوهم بالترحاب، وعندما دخل الصهاينة القرية فتحوا نيران أسلحتهم على مستقبليهم، ولم ينج من المذبحة سوى (٤٠) عربيًا استطاعوا الفرار إلى قرية مجاورة. وقد دمر الصهاينة بعد هذه المذبحة جميع منازل ناصر الدين.

مذبحة حيفا:

مذبحة حيفا (٢٢ أبريل ١٩٤٨): هاجم المستوطنون الصهاينة مدينة "حيفا" فى منتصف الليل واحتلوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، فهرع العرب

---

(١) المسيرى، مرجع سابق، ج٧، ص١٠٠.

الفلسطينيون العُـزل الباقون للهرب عن طريق مرفـأ المدينة فتبعهم اليـهود وأطلقوا عليهم النيران، وكانت حصيلة هذه المذبحة أكثر من ١٥٠ قتيلاً و٤٠ جريحًا.

مذبحة شرفات:

مذبحة شرفات (٧ فبراير ١٩٥١): فى الثالثـة من صبيحة يوم ٧ فبراير عام ١٩٥١وصلت ثلاث سيارات من القـدس المحتلة إلى نقطة تبعد ثلاثة كـيلو مترات ونصف عن خط السكة الحـديدية جنوب غرب المدينة وتوقـفت حيث ترجل مـنها نحو ثلاثيـن جنديًا واجتازوا خط الهـدنة وتسلقوا المرتفع باتجـاه قرية "شـرفات" الواقعة فى الضفة الغربية والمطلة على القدس بمسافة تبعد نحو خمسة كيلو مترات. وقطع هؤلاء الجنود الأسلاك الشائكة المحيطة بالمدينة وأحاطـوا ببيت مختار القرية، ووضعوا عبوات ناسفة فى جدرانه وجدران البيت المحاذى له، ونسفوهما على من فيـهمـا، وانسحبـوا تحت حمـاية نيران زملائهم الـتى انصبت بغزارة علـى القرية وأهلها، وأسفرت هذه المذبحة عن سقـوط عشرة من القتلى منهم شـيخين وثلاث نسـاء وخمسـة أطفال، كما أسفرت عن وقـوع ثمانية جرحى جميـعهم من النساء والأطفال.

مذبحة قلقيلية:

حرص أهل قلـقيلية علـى جمع المال وشراء أسلحـة وذخيـرة للجهـاد ضد الصهـاينة، ولم تنقطع الاشتـباكات بينـهم وبين عدوهم. ولم يكتم الإسـرائيليون غضبهم من فشلهم فى كسر شوكة سكان القرية، حتى أن "ديان" قال فى اجتماع له على الحـدود إثر اشـتـباك فى يونيـه ١٩٥٣: "سأحـرث قلقيليـة حرثًا". وفى الساعة التاسعة من مساء العـاشر من أكتوبر عام ١٩٥٣ تسللت إلى "قلقيلية" قوة من الجيش الإسرائيلى تقدَّر بكتـيبة مشاه وكتيبة مـدرعات تساندهما كتيبتـا مدفعية ميدان ونحو عشر طائرات مقاتلة، ولغمت بعض الطرق فى الوقت الذى احتشدت فيه قـوة كبيرة فى المستـعمرات القريبة تحـركت فى الساعة العاشرة من مـساء اليوم

نفسه وهاجمت القرية من ثلاث اتجاهات مع تركيز الجهد الأساسى بقوة كتيبة المدرعات على مركز الشرطة فيها. لكن الحرس الوطنى تصدى بالتعاون مع سكان القرية لهذا الهجوم وصمدوا بقوة وهو ما أدَّى إلى إحباطه وتراجُع المدرعات. وبعد ساعة عاود المعتدون الهجوم بكتيبة المشاه تحت حماية المدرعات بعد أن مهدوا للهجوم بنيران المدفعية الميدانية، وقد استُشهد قرابة سبعين من السكان ومن أهل القرى المجاورة الذين هبوا للنجدة، هذا فضلاً عن الخسائر المادية الكبيرة.

مذبحة قبية:

فى منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٥٣ أغار جنود الفرقة ١٠١ التابعة للجيش الإسرائيلى بقيادة "أرييل شارون" على القرية التى تقع شمال مدينة القدس فى المنطقة الحدودية تحت إدارة الأردن. وطوَّق (٦٠٠) جندى إسرائيلى القرية تمامًا وقصفوها بصورة مركَّزة ودون تمييز، ثم دخلت قوة منهم إليها وهى تطلق النار عشوائيًا بعد أن تمكنوا من التخلص من المقاومة التى أبدتها قوة الحرس الوطنى المحدودة فى القرية. وبينما كان يجرى حصد المدنيين العُزَّل بالرصاص قامت عناصر أخرى بتلغيم العديد من منازل الفلسطينيين وتدميرها على من فيها.

مذبحة خان يونس:

مذبحة خان يونس اعتداء صهيونى غاشم ارتكبته إسرائيل عام ١٩٥٥م ضد أهالى مدينة خان يونس، إحدى مدن قطاع غزة فى جنوب غربى فلسطين، بهدف تصفية الفدائيين الفلسطينيين وإضعاف روح المقاومة لديهم. استخدم الإسرائيليون فى هذه الغارة شتى أنواع الأسلحة، وتمكن فيها سلاح المهندسين الإسرائيلى من سحق المخيمات والأبنية التى أوى إليها عشرات الأفراد. وقد أسفرت المجزرة عن مقتل أكثر من (٤٠) فلسطينيًا وجرح أكثر من (٥٠) آخرين. يذكر أن الإسرائيليين قاموا بغارة عدوانية قبل هذه المجزرة بثلاثة أشهر على مدينة خان يونس قتل فيها

أكثر من عشرين فلسطينيًا وجرح آخرون، وقد امتدّت هذه الغارة إلى حدود بلدة بنى سهيلة القريبة منها[1].

مذبحة كفر قاسم:

مذبحة كفر قاسم اعتداء صهيونى غاشم قامت به القوات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، وأسفر عن مقتل عشرات الأبرياء من المدنيين فى بلدة "كفر قاسم" بفلسطين عام ١٩٥٦م. فقد صدرت الأوامر العسكرية بمنع التجوال فى قرية "كفر قاسم" فى الحال، غير أن معظم أهالى القرية من الرجال كانوا فى عملهم ولم يعرفوا نبأ حظر التجوال، وأيضًا بعض النساء والشبان، فأوقفتهم جميعًا قوات حرس الحدود وأردتهم قتلى مجموعة تلو الأخرى. كان ذلك فى عهد رئيس الوزراء الإسرائيلى ووزير الحربية "دافيد بن جوريون"، و"موشى دايان" رئيس أركان الجيش، و"شمعون بيريز" نائب وزير الحربية، وتحت إشراف كبار القادة فى الجيش الإسرائيلى.

مذبحة صبرا وشاتيلا:

مذبحة صبرا وشاتيلا اعتداء صهيونى غاشم ارتكبته إسرائيل فى ١٦ سبتمبر ١٩٨٢م ضد الفلسطينيين بمعاونة جيش الكتائب اللبنانى، بهدف تصفيتهم من الأراضى اللبنانية بمخيمى "صبرا وشاتيلا" اللذين يقعان على حدود بيروت الغربية. كان هدف إسرائيل القضاء على الروح الوطنية بين الفدائيين الفلسطينيين وتصفية الوجود الفلسطينى فى الجنوب اللبنانى المتاخم للحدود الشمالية الفلسطينية، وإضعاف روح المقاومة لدى الفلسطينيين. وقد وقعت مجزرة صبرا وشاتيلا فى عهد رئاسة "مناحيم بيجن" للحكومة الإسرائيلية، و"شارون" وزير حربيته اللذين وضعا استراتيجية المجزرة والمداهمة والتصفية، مستغلين فى ذلك الكتائبيين المعارضين للوجود الفلسطينى فى لبنان، حيث باشروا التنفيذ بتمهيد

---

(١) أنظر: الموسوعة العربية العالمية (المجازر الإسرائيلية).

وتخطيط وتهيئة كاملة من الإسرائيليين حسبما تقول أدبيات هذه المجزرة الكبيرة. يذكر أن السفاح "شارون" انتخب رئيسًا لوزراء الحكومة الإسرائيلية عام ٢٠٠١م، وظل يتبع سياسة الذبح والتقتيل فى مواجهة **انتفاضة الأقصى** التى انطلقت فى سبتمبر ٢٠٠٠م، واستشهد المئات من الفلسطينيين من بينهم قادة فصائل سياسية.

كما كانت خطة العدو الصهيونى تقوم على تصفية فصائل الجهاد الفلسطينى متمثلة فى استعداء الأنظمة العربية الحاكمة على فصائل الجهاد الفلسطينى وتحذيرها من ازدياد قوتها العسكرية، أنظر إلى تصفية فصائل المقاتلين الفلسطينيين على أرض الأردن على يد الجيش الأردنى، وقد عرفت هذه التصفية باسم مذابح أيلول (سبتمبر) الأسود عام ١٩٧٠م، وقد عايش "عبد الله عزام" هذه الأحداث، وقد حُصرت فصائل المقاتلين الفلسطينيين فى مدن الأردن، ولوحقت من بيت إلى بيت ومن جبل إلى جبل فى عمان وغيرها من المدن، وقد حدث فيها ما يشيب لهوله نواصى الولدان، ليتم فى النهاية سحق القوات الفلسطينية تحت جنازير دبابات الجيش الأردنى[١].

وفى تونس كانت الإغارة على مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى يوم الثلاثاء السادس عشر من محرم ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٥م وأسفرت الغارة عن (١٩٥) قتيل وجريح. وقد أعلن مسئول أمريكى أن الرد على الهجمات الإرهابية رد مشروع، والغارة اليهودية تدخل تحت هذا المبدأ، فى حين صرح مسئول مصرى بأن مصر ستستمر فى مساعى السلام رغم الصدمة المأسوية[٢].

---

(١) أنظر: جمال عبد الهادى (١٩٩٣). الطريق إلى بيت المقدس. الجزء الثالث. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. ص١٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٥.

مذبحة المسجد الأقصى:

وفى يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٩٠م وقبيل صلاة الظهر حاولت جماعة من اليهود ممن يطلقون على أنفسهم "أمناء جبل الهيكل" وضع حجر الأساس للهيكل الثالث المزعوم فى ساحة الحرم القدسى الشريف، وقد هب أهالى القدس لمنع المتطرفين الصهاينة من تدنيس المسجد الأقصى، مما أدى إلى وقوع اشتباكات بين المتطرفين الصهاينة الذين يقودهم "جرشون سلمون" زعيم "أمناء جبل الهيكل" مع نحو خمسة آلاف فلسطينى قصدوا المسجد لأداء الصلاة فيه، وما هى إلا لحظات حتى تدخل جنود حرس الحدود الصهاينة المتواجدون بكثافة داخل الحرم القدسى، وأخذوا يطلقون النار على المصلين دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ، مما أدى إلى استشهاد أكثر من (٢١) شهيدا وجرح أكثر من (١٥٠) منهم، كما اعتقل (٢٧٠) شخصا داخل وخارج الحرم القدسى الشريف. وسميت باسم مذبحة المسجد الأقصى.

مذبحة الحرم الإبراهيمى:

وفى ٢٥ فبراير ١٩٩٤ وقبل أن يستكمل المصلون صلاة الفجر فى الحرم الإبراهيمى فى الخليل دوت أصوات انفجار القنابل اليدوية فى جنبات الحرم الشريف، واخترقت شظايا القنابل والرصاص رؤوس المصلين ورقابهم وظهورهم لتصيب أكثر من ٣٥٠ منهم، وقد بدأت الجريمة حين دخل "باروخ جولد شتاين" ومجموعة من مستوطنى "كريات أربع" المسجد الإبراهيمى وقد وقف "جولد شتاين" خلف أحد أعمدة المسجد وانتظر حتى سجد المصلون وفتح نيران سلاحه الرشاش على المصلين وهم سجود، فيما قام آخرون بمساعدته فى تعبئة الذخيرة التى احتوت رصاص "دمدم" المتفجر والمحرم دوليا. وقد قام "الصهاينة" بغلق أبواب المسجد لمنع المصلين من الهرب، كما منعوا القادمين من خارج الحرم من الوصول إلى ساحته لإنقاذ الجرحى، وفى وقت لاحق استشهد آخرون برصاص جنود الاحتلال خارج المسجد، وفى المقابر أثناء تشييع جثث شهداء المسجد، وقد

راح ضحية المجزرة نحو (٥٠) شهيداً، قتل (٢٩) منهم داخل المسجد. ومنذ ذلك الحين واليهود يسيطرون سيطرة كاملة بعد أن قسموه إلى جزأين: أحدهما للمسلمين، والآخر لليهود. وفى ٢٨/ ٢/ ٢٠١٠ خرج علينا "نتنياهو" بقرار يزدرى فيه المسلمين باعتبار المسجد الإبراهيمى فى الخليل، ومسجد بلال بن رباح فى بيت لحم ضمن المناطق التراثية الإسرائيلية.

مذبحة النفق:

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٩٦ عمدت حكومة العدو الصهيونى إلى فتح نفق مواز لجدار الأساسات الجنوبى للمسجد الأقصى مما اعتبره الفلسطينيون خطوة باتجاه تنفيذ مخطط صهيونى لهدم المسجد عن طريق تعرية أساساته، وقد اندلعت صدامات عنيفة بين المتظاهرين الفلسطينيين وجنود الاحتلال فى الفترة ما بين ٢٥ - ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦م، وقد استشهد نحو (٧٠) فلسطينيا برصاص جنود الاحتلال الذين فتحوا النار على المتظاهرين من طائرات مروحية فيما عرفت باسم مذبحة النفق. ثم كانت مذبحة غزة الوحشية عام ٢٠٠٩

وما زالت إسرائيل حتى الآن ترتكب الجرائم ضد المدنيين الفلسطينيين، وتنتهك حقوقهم فى مختلف المجالات بصورة صارخة على مرأى ومسمع من العالم دون أن يحرك العالم ساكنا. فقد تعرضت قوات الاحتلال الإسرائيلى لحياة أبناء الشعب الفلسطينى والسلامة البدنية لهم، وارتكبت قوات الاحتلال جرائم قتل بشعة ووحشية بحق المدنيين، وبخاصة الأطفال الأبرياء منهم، وقامت بالاعتداء على الكرامة الشخصية لهم، وارتكبت أعمال التعذيب والتشويه، والمعاملة القاسية والمهينة للمدنيين والمعتقلين والأسرى الفلسطينيين، والتى تنتقص من الكرامة الإنسانية للمواطن الفلسطينى.

لقد استهدف العنف الموجه قصدا للمدنيين دفعهم قسراً للنزوح عن أراضيهم بغية الاستيلاء عليها دون تحمل أعباء إعاشتهم وإدارة حياتهم، ومحاولة التملص

من عبء تهمة الإبادة بدعوى أن الضحايا يتحملون مسؤولية تركهم لأراضيهم وممتلكاتهم ومنازلهم، وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا بإثارة أكبر قدر من الرعب لدى السكان المدنيين، ولكى يتحقق ذلك فلا بد من الإقدام على المذابح بالفعل، هكذا كان سعى الصهاينة عند إقامة دولة إسرائيل، ومازال الترويج لذلك قائما تحت لافتة ما يعرف بالترانسفير.

إن التاريخ البشرى لم يشهد إرهابًا سياسيًا، فكريًا، عقائديًا، عنصريًا، دمويًا، منهجيًا، مروعًا مع سبق النوايا والتخطيط والبرمجة والإصرار على التنفيذ بأبشع الصور والأشكال، كالإرهاب الذى مارسته الحركة الصهيونية بمنظماتها وأجهزتها الإرهابية السرية ما قبل قيام الكيان الصهيونى الإسرائيلى، وكالإرهاب الذى مارسته ولا تزال الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على مدى العقود الماضية التى أعقبت قيام إسرائيل.

فخلال عدوان إسرائيل على غزة أقدمت إسرائيل على تجنيد جيش من كبار الحاخامات اليهود ليصبوا مزيداً من الزيت على نار المحرقة فى غزة، فأصدر كبار حاخامات إسرائيل فتاوى تؤيد وتغطى ما يقوم به الجيش الإسرائيلى، وتؤيد قتل الأطفال والنساء، بدعوى أن الشريعة اليهودية لا تمانع فى ذلك كعقاب جماعى للأعداء. وطفت على السطح فتاوى الحاخامات الذين أخذوا يستحصرون نصوصهم التوراتية من العهد القديم لإطلاق فتاوى القتل والفتك ضد من أسموهم العماليق (العرب الفلسطينيين)[1].

لقد نادى الصهيونى "زانغويل"[2] بطرد العرب بحد السيف، وقد تكفل

---

(١) نواف الزرو (٢٠١٠). الإرهاب الصهيونى وفتاوى الحاخامات. مجلة العربى، عدد ٦١٦.

(٢) يسرائيل زانغويل (١٨٦٤ - ١٩٢٦) كاتب كوميدى إنجليزى، ولد فى لندن لعائلة من المهاجرين اليهود من شرق أوروبا. كرس قلمه لخدمة الحركة الصهيونية. صاحب مقولة: فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

"موشى سيملانسكى" بشرح ذلك قائلاً: "سنزعجهم بغارات متكررة، أى بالإرهاب والمذابح، حتى يرحلوا".

ومازالت حمى الفتاوى التوراتية الداعية إلى إبادة الفلسطينيين. فقد أفتى عدد من كبار الحاخامات بأنه يتوجب على اليهود تطبيق حكم التوراة الذى نزل فى قوم "عملاق" على الفلسطينيين، وهو الحكم الذى ينص على قتل الرجال والأطفال والنساء والعجائز وسحق البهائم[1].

الحرب النفسية:

تنكر إسرائيل على الشعب الفلسطينى حقوقه المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتخوض حربا نفسية وحشية ضد السكان المدنيين الأبرياء، مستهدفة بذلك تحطيم وتدمير الإنسان الفلسطينى، وتنتهك كرامته الإنسانية، متجاوزة القوانين والشرائع الدولية، وبخاصة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وما نص عليه العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والثقافية للبشرية، الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦٦، والذى أكد على أن أساس الحرية

---

(١) أنظر: "١٥فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ١٦تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاً إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ (سفر التثنية١٣: ١٥ - ١٦). "حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِى الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِى أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. ١٥هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِى لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا. ١٦وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِى يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا. (سفر التثنية ٢٠: ١٠ - ١٦).

والعدل والسلام فى العالم هو الإقرار بالكرامة الإنسانية والحقوق المتساوية والثابتة للبشرية جمعاء، وأن السبيل الوحيدة لتحقيق المثل العليا للإنسانية تتمثل فى أن يكون البشر أحراراً، ومتمتعين بالحرية المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومتحررين من الخوف والتهديد والإرهاب.

والحرب النفسية فى مفهومها الواسع هى كل ما يوجه إلى العدو لغرض الإسهام بصورة فاعلة فى قهره أو التأثير فى سلوكه. وهى حملة شاملة تستخدم فيها كل الأجهزة والأدوات المتاحة للتأثير فى عقول ومشاعر جماعة محددة بقصد تغيير مواقف أخرى تؤدى إلى سلوك يتفق مع مصالح الطرف الذى يشن هذه الحرب(١).

ويجمل "حامد ربيع" فيقول: "الحرب النفسية هى نوع من القتال النفسى لا يتجه إلا للعدو ولا يسعى إلا لتحطيم النواحى المعنوية له بجميع الوسائل للقضاء على أى صورة من صور الثقة بالنفس التى قد تولد فيه المقاومة أو عدم الإذعان أو الاستسلام"(٢).

مراحل تطور الحرب النفسية الصهيونية:

المرحلة الأولى: وتمتد هذه المرحلة منذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وحتى نهاية القرن التاسع عشر، وهى تسمى مرحلة الدفاع اليهودى، وقد أخذت تقاليد الثورة الفرنسية (الحرية - الإخاء - المساواة)، وإعادة تشكيل الشخصية اليهودية، وإعادة كتابة التاريخ اليهودى.

---

(١) ماركو ميلوش (ترجمة) لبيب لهيطة (١٩٧٣). الحرب النفسية. القاهرة: دار الثقافة الجديدة. ص١٧ .

(٢) أنظر: حامد ربيع (١٩٧١). الحرب النفسية فى المنطقة العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص٧٣ .

المرحلة الثانية: وتبدأ منذ انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧م وحتى بداية الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩م لتبرير التواجد السياسى، وقبول شرعية الوجود اليهودى ضمن الأسرة الدولية.

المرحلة الثالثة: تمتد من عام ١٩٣٩م وحتى تأسيس الكيان الصهيونى[١] عام ١٩٤٨م، وفى هذه المرحلة تم نقل المنظمة الصهيونية العالمية فى أوروبا فى جينيف إلى أمريكا؛ لأن أمريكا لم تدخل حربًا ولم تضعف اقتصاديًا، وأغلب اليهود الأثرياء انتقلوا إلى هناك لضمان استثمار رؤوس الأموال فى أمريكا، وتهدف هذه المرحلة إلى تأييد الرأى العام الأمريكى للحصول على الولاء المادى والمعنوى.

---

(١) الكيان الصهيونى مصطلح يُستخدَم فى الخطاب السياسى العربى للإشارة إلى الدولة الصهيونية. وهو مصطلح له مقدرة تفسيرية عالية لأنه منفتح، فهو لا يقبل القول بأن ما أُسِّس على أرض فلسطين هو مجتمع يهودى متجانس تحكمه دولة عادية، وإنما هو كيان كائن لم تتحدد صفاته بعد، أى أن المصطلح هنا يؤكد الشذوذ البنيوى لهذا الكيان الذى غُرس فى فلسطين المحتلة غرسًا وفُرض عليها فرضًا. ولأنه كيان مشتول لا جذور له فإنه يمكن أن "يُنفَض" كما يُنفَض الغبار ومن هنا كان مصطلح "الانتفاضة". واستخدام كلمة "كيان"، شأنها شأن عبارة "فلسطين المحتلة" و"تجمُّع" لا تتضمن أىَّ شكل من أشكال السب أو القدح، وإنما هو محاولة جادة للابتعاد عن القوالب اللفظية الجاهزة التى تسقط فى العموميات وتتجاهل المنحنى الخاص للظاهرة وتقوم بالتطبيع المعرفى للظاهرة الصهيونية. واستخدام هذه المصطلحات لا يعنى أن "الكيان الصهيونى" أقل قوة أو بطشًا أو تواجدًا من الناحية العسكرية من "الدولة الصهيونية"، فجماعات المغول التى اكتسحت العالم الإسلامى وأسقطت الخلافة وهدَّدت العالم المسيحى، لم تكن تشكل دولة ولا حتى قبائل رعوية فى بقعة محددة، وإنما - كما يبدو - كانت فائضًا سكانيًا ضخمًا قذفت به سهوب منغوليا الشاسعة عبر موجات متكررة، فاكتسحت الصين والهند ثم العالم الإسلامى. وكان هذا الفائض يتسم ببراعة عسكرية فائقة ومقدرة على إدارة الحرب النفسية وكان يحمل رغبة صادقة فى تحطيم الحضارة الإنسانية باعتبارها تعبيرًا عن شكل من أشكال الانحلال. (أنظر: عبد الوهاب المسيرى، ج٧، ص٤).

المرحلة الرابعة: وهى تمتد من تاريخ إعلان الكيان السياسى الصهيونى والاعتراف بشرعية الوجود الإسرائيلى حتى حرب ١٩٦٧م وإبراز الحركة وإنشاء الكيان الصهيونى. وقد توجهت نحو عرب فلسطين للرضوخ والقبول بالوجود الصهيونى ولتقبل العرب هذا الوجود، وهى تشمل: استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتوسيع النطاق الإقليمى والاستيلاء على القدس، وتطوير هذا الكيان ليصبح الدولة الكبرى والأقوى فى المنطقة.

المرحلة الخامسة: وهى تمتد منذ حرب يونيو ١٩٦٧م وحتى حرب رمضان ١٩٧٣م، وتتميز دعايتها بالأسلوب الهجومى الاستفزازى والتحدث بلغة الدولة الكبرى المسيطرة.

المرحلة السادسة: وهى تمتد من سنة ١٩٧٣ إلى ١٩٩١م وقد اتسمت بالصواريخ العراقية والحد من الهجرة داخل إسرائيل والذعر خوفًا من العرب والتحالف مع إيران[١].

وقد ازداد العدوان الصهيونى شراسة ضد الشعب الفلسطينى مع انطلاقة الانتفاضة الأولى نهاية عام ١٩٨٧، وانتفاضة الأقصى التى بدأت مع نهاية شهر سبتمبر عام ٢٠٠٠، ليزداد الضغط النفسى على المدنيين الفلسطينيين بدرجة كبيرة من جراء قيام قوات الاحتلال الصهيونى باجتياح شامل للضفة الغربية، والذى أدى إلى إعادة احتلال مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية، كما أدت إلى ارتكاب قوات الاحتلال الصهيونى مجازر بشعة بحق المدنيين الفلسطينيين، فقد نفذت عمليات إعدام ميدانى للعديد من المواطنين الفلسطينيين، سواء إعدام الآباء أمام أبنائهم وأقاربهم، أو إعدام الأبناء أمام آبائهم وأمهاتهم وجيرانهم، كما قامت بتفجير أو هدم البيوت أمام أصحابها، واستخدمت الصواريخ لقصف المنازل المدنية، وأوقعت عشرات الضحايا من المدنيين من أطفال ونساء وشيوخ، كما

---

(١) راجع الحرب النفسية، حميدة سميسم، ص٢١٣ - ٢١٤ .

حصل فى حى الدرج بغزة وغيرها من المناطق. وتستخدم قوات الاحتلال الصهيونى بشكل مكثف، طائراتها الحربية ودباباتها ورشاشاتها الثقيلة، وجرافاتها لقصف وهدم أحياء بكاملها، كما حدث فى "غزة والقدس"، وباقى المناطق فى الضفة الغربية. كما أن قوات الاحتلال قامت بالإجهاز على الجرحى، وقتل المستسلمين العزل، كما حدث فى "جنين" بالضفة الغربية، حين دمرت الطائرات والدبابات مخيم جنين، وارتكبت مجزرة مروعة ضد المدنيين الفلسطينيين داخل المخيم راح ضحيتها أكثر من (٢٥٠) مدنيًا بين طفل وامرأة وشاب وشيخ، كما استخدمت طائراتها الحربية من نوع أف ١٦، ومدافع دباباتها لقصف البلدة القديمة فى مدينة "نابلس"، حيث دمرتها بالكامل فوق رؤوس سكانها، مما أدى إلى مقتل أكثر من (٧٥) مدنيًا، فقد ذكرت مصادر وزارة الصحة الفلسطينية أن القوات الإسرائيلية والمستوطنين قتلوا حوالى (١٨٥٠) فلسطينيًا فى الأراضى الفلسطينية المحتلة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، منهم (٤٦٧) تحت سن ١٨ عامًا، وبينهم عشرون رضيعًا لا تتجاوز أعمارهم السنة. وذكرت هذه المصادر أن نسبة ٨٥٪ من الذين استشهدوا هم من المدنيين كما أصيب ما لا يقل عن (٤٠٠٠٠) جريح[١].

إن الشخص القتيل هو فقط شخص مفقود، أما الشخص الذى انهارت أعصابه فهو محور الخوف الذى يستشرى كالمرض المعدى بسهولة والقادر على نشر وباء الهلع. وقد استخدم العدو الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى عامة وأهل القدس خاصة حربًا نفسية استراتيجية وحربًا نفسية تكتيكية، والفارق بينهما أن الحرب النفسية الاستراتيجية تهدف إلى التأثير فى قطاعات أوسع من السكان، وفى منطقة جغرافية أوسع، ولمدة زمنية أطول بشكل عام، وذلك للإضرار بمعنويات السكان المدنيين وضرب المراكز المدنية الكبرى. بينما تستخدم فى الحرب النفسية التكتيكية القصف المدفعى بغرض الإزعاج وإقلاق الراحة المصحوبة بالفزع[٢].

---

(١) اسماعيل خضر. دور القوانين الدولية والتشريعات السماوية فى حماية المدنيين أثناء الحرب. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

(٢) حميدة سميسم (٢٠٠٥). الحرب النفسية. القاهرة: الدار الثقافية للنشر. ص١٦ .

وبرغم أن التعذيب ظاهرة عالمية وجدت منذ وجود البشرية كما وُجدت جذورها فى أقدم الحضارات العالمية، وبالرغم من أن الكثير من دول العالم حاولت إخفاء ظاهرة التعذيب خاصة خلال القرن الثانى عشر وفى دول أوروبا بالذات، فإنّ هذه الظاهرة عادت للظهور من جديد بقوة أثناء الحرب العالمية الثانية إلى حد منذر بالخطر مما يهدد الصحة النفسية للإنسان والمجتمع معًا.

فالتعذيب صناعة بشرية يمارسه فئة من الناس يتسمون باضطرابات فى الشخصية تجعلهم قادرين على تجاوز الحدود المعروفة للرحمة والشفقة واحترام قدسية الحياة وكرامة الإنسان. فلم يعرف التعذيب فى المخلوقات الأخرى، حتى الحيوانات المفترسة حين تتقاتل فإنها تفعل ذلك من أجل الحصول على الطعام والحماية، ثم تكف عن القتال حين يتحقق الشبع والأمان.

والمجتمع الفلسطينى لم يكن بمأمن من هذه الظاهرة ومدى انتشارها وخطورتها على الفرد من ناحية، والمجتمع من ناحية أخرى، كباقى دول العالم، إلا أن التعذيب فى المجتمع الفلسطينى خاصة على يد قوات الاحتلال والقمع الصهيونى له أهداف تختلف تمامًا عن أهداف ظاهرة التعذيب المتعارف عليها عالميًا، فإذا كان التعذيب يعرف بأنه "إلحاق الأذى الجسدى أو النفسى المتعمد أو المنظم من قبل شخص أو أكثر، يعمل وحده أو بناء على أوامر سلطة بهدف إجبار شخص آخر على تقديم معلومات أو على الاعتراف بشىء ما أو لسبب آخر"، إلا أن التعذيب فى السياق الفلسطينى خاصة على يد قوات القمع الصهيونى كان ولا يزال يهدف إلى تدمير البنية الأساسية للمجتمع الفلسطينى، والدليل على ذلك أن الأسرى الفلسطينيين فى السجون وخارج السجون الإسرائيلية كانوا مهددين وملاحقين، هم وأسرهم، أثناء فترة الاعتقال وبعد فترة الاعتقال. ولم يقتصر التهديد على الأسرى كأفراد وأسر وجماعات، بل تجاوز ذلك إلى إلحاق الأذى والتدمير والتخريب بالبيت والمتجر والمصنع والمزرعة ومصادر الرزق المختلفة، بل حتى بأبسط مقومات الحياة التى قد يشترك فيها الإنسان مع الحيوان.

لقد كان ردّ الفعل الإسرائيلى على انتفاضة الشعب الفلسطينى المعروفة باسم انتفاضة الأقصى بمزيد من العنف، وكان السجن والتعذيب أحد الأساليب التى مارستها السلطات الإسرائيلية.

وفى إحدى الدراسات التى أجريت على يد مجموعة من الباحثين عام ١٩٩٣، هدفت إلى اكتشاف تأثير الخبرات الصادمة على الأسرى المحررين الذين تعرضوا لأساليب التعذيب الجسدى والنفسى، وذلك من خلال عينة تكونت من (٤٧٧) فردًا ممن تتراوح أعمارهم بين ١٤ و٤٥ عامًا، والذين قضوا فترات فى السجن تتراوح بين عام وعشرة أعوام. وقد استخدم فى هذه الدراسة الأدوات التالية: استبانة التعذيب التى تكونت من (٤١) بندًا، واشتملت هذه البنود على أنواع مختلفة من التعذيب النفسى والجسدى. استبانة الملاحظة خلال فترة الاعتقال وما بعد الاعتقال، واشتملت على (٤٠) بندًا. استبانة العلاقات العائلية والوضع الاقتصادى. استبانة الصحة العامة خلال فترة الاعتقال، وتكونت من (١٦) بندًا. استبانة أعراض ما بعد الخبرة الصادمة، وتتكون من (١٥) بندًا قائمة على الدليل التشخيصى والإحصائى الرابع DSM.IV الصادر عن الجمعية الأمريكية للطب النفسى. وقد أوضحت نتائج الدراسة أن حوالى ٨٥,٨ ٪ من أفراد العينة قد تعرضوا للضرب، وإن ٩٢,٩ ٪ تعرضوا للتبريد فى الثلاجة، وحوالى ٧٦,٧ ٪ من أفراد العينة تعرضوا للتسخين الشديد داخل أفران، و٩١,٦ ٪ تعرضوا للوقوف فترة طويلة، و٦٨,١ ٪ تعرضوا للضغط على الرقبة، و٧٩,٩ ٪ تعرضوا للشبح، و٧٧,٤ ٪ تعرضوا للحرمان من الطعام، و٨٦,٦ ٪ قد تعرضوا للعزل الانفرادى، و٧١,٥ ٪ تعرضوا للحرمان من النوم، و٨١,٦ ٪ قد تعرضوا للضوضاء الشديدة، و٩٤,٨ ٪ تعرضوا للإهانة الشديدة، و٩٠ ٪ قد تعرضوا للتهديد الشديد، و٧٠,٢ ٪ قد شاهدوا تعذيب الآخرين، و٦٦ ٪ قد تعرضوا للضرب على الخصيتين. كما اتضح من نتائج الدراسة أنّه لم تسلم عائلات الأسرى وأسرهم وذويهم من التعذيب، مما يدلل على أن هدف التعذيب ليس الحصول على

الاعتراف، أى انتزاع الاعتراف، بل كان الهدف الاستراتيجى هو تدمير الفرد الفلسطينى خاصة والمجتمع الفلسطينى عامة، وقد تبين ذلك من خلال نتائج الدراسة، حيث اتضح أن ٢٨ ٪ من أفراد عائلات الأسرى قد تعرضوا للضرب والتعذيب أمام أسرهم، كما أن ٢٨,٩ ٪ من ذوى الأسرى تعرضوا للتهديد بالاغتصاب، سواء كانت زوجاتهم أو أمهاتهم، وأن ٣١ ٪ من ذوى المعتقلين ذكروا أنه قد تم تدمير منازلهم بما تحويه من أثاث.

كما تبين نتائج الدراسة أن الآلام التى صاحبت الأسرى داخل السجن امتد تأثيرها حتى خارج السجن، فقد ذكر المحررون أن ٤١,٩ ٪ منهم يجدون صعوبة فى التكيف مع أنفسهم ومع المجتمع، كما أن ٤٤ ٪ منهم يواجهون صعوبات كبيرة فى العودة إلى الحياة الطبيعية، وأن حوالى ٢٠,١ ٪ يعانون من مشاكل جنسية مختلفة، فى حين أن ٧٦,٥ ٪ يعانون من مشاكل اقتصادية شتى. كما اتضح من نتائج الدراسة أن المشاكل سالفة الذكر ليست وحدها التى أثرت فى الأسرى المحررين، بل بينت نتائج الدراسة أن هناك مشاكل أشد عمقًا على حياة الأسرى، ومنها الصحة النفسية للأسير التى تأثرت تأثيراً سلبيًا كبيراً[1].

وفى دراسة أحمد أبو طواحينة (١٩٩٩) سعى الباحث إلى معرفة واختبار أثر التعذيب على مجموعة من الأسرى السياسيين الفلسطينيين الذين أفرج عنهم من داخل السجون الإسرائيلية، والذين تم تعذيبهم داخل السجون مع مجموعة ثانية لم يتم اعتقالهم على الإطلاق. واستخدم الباحث فى هذه الدراسة مقياس الاضطراب النفسى الناتج عن الصدمة، بالإضافة لقائمة مراجعة الأعراض، ومقياس التوافق الشخصى الاجتماعى. وثبت من خلال نتائج الدراسة أن نسبة لا

---

(١) سامى عوض (٢٠٠٠). دراسة للاضطرابات والأمراض النفسية التى يعانى منها الأسرى الفلسطينيون فى السجون الإسرائيلية. مركز الشرق للصحة النفسية والمجتمعية.

تقل عن ٢٨ ٪ من الذين تم تعذيبهم أصيبوا بأمراض نفسية ناتجة عن التعذيب، تتراوح مابين التوتر النفسى والاكتئاب[١] والذهان[٢]، [٣].

وإذا كانت العلاقات بين الدول مازالت تحكمها الشرعية الدولية، وما زالت المنازعات وما تولده من كوارث على البشر وعلى الطبيعة تخضع لمرجعية قانونية ومبادىء أخلاقية قد سن معظمها إثر الحرب العالمية الثانية انطلاقًا من مشاهدة مآسى الحرب وهولها، وقد وضعت هذه المرجعية فى إطار منظمة الأمم المتحدة التى أنشئت سنة ١٩٤٥م لإنقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب ولحفظ السلام والأمن الدوليين، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس مبدأ المساواة فى الحقوق بين الشعوب، وأن يكون لكل منها تقرير مصيرها ولتحقيق التعاون الدوليين، وتعزيز حقوق الإنسان والحريات الأساسية، ولجعل هيئة الأمم المتحدة مرجعا لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

فإن وجود هذه المراجع القانونية بما توفره - نظريًا - من ضمانات للحقوق الأساسية لضحايا المنازعات مقارنة بما يحدث فى الميدان فى مناطق مختلفة من العالم وخاصة فى فلسطين، يحدث صدمة قوية فى نفوس كل المؤمنين بعلوية وقدسية القانون الدولى زمن الحرب وضرورة احترامه محافظة على مبادىء العدل والمساواة بين الجميع وعلى الاستقرار فى العالم.

---

(١) الاكتئاب هو حالة من الحزن الشديد المستمر تنتج عن الظروف المحزنة الأليمة، وتعبر عن شىء مفقود، وإن كان المريض لا يعى المرجع الحقيقى لحزنه. (أنظر: حامد زهران، ١٩٩٧: ٥١٤).

(٢) أحمد أبو طواحينة (١٩٩٩). الآثار النفسية للتعذيب. رسالة دكتوراه. كلية البنات، جامعة عين شمس.

(٣) الذهان اضطراب عقلى خطير، وخلل شامل فى الشخصية يجعل السلوك العام للمريض مضطربًا ويعوق نشاطه الاجتماعى (حامد زهران، ١٩٩٧: ٥٢٧).

وقد وثّقت منظمة "مراقبة حقوق الإنسان" حالات عمدت فيها القوات الإسرائيلية إلى استخدام المدنيين الفلسطينيين كدروع بشرية، وهو أسلوب يحرّمه القانون الدولى الإنسانى. وقال "بوكارت" أحد كبار الباحثين فى المنظمة المذكورة، وعضو فريق التحقيق فى مجزرة "مخيّم جنين" للاجئين الفلسطينيين: "كما هو الحال فى تحقيقاتنا السابقة فى عمليات الجيش الإسرائيلى، فقد وجدنا حالات كثيرة أجبرت فيها القوات الإسرائيلية مدنيين فلسطينيين على المشاركة فى عمليات عسكرية وفى بعض الأحيان على مصاحبة قوات الجيش الإسرائيلى أثناء تفتيشها للمنازل وعلى القيام ببعض المهام الخطيرة أثناء عمليات التفتيش".[1]

إن المجتمع الدولى مدعو إلى مراجعة أساليب ضغطه على إسرائيل ولكنه لن يقوم بذلك بدون أن تحرّكه الضمائر العربية والإسلامية وبدون أن تشدّ أزره. فالعالم لا يحتاج اليوم إلى المزيد من الاتفاقيات لحماية ضحايا النزاعات المسلحة والاحتلال، بقدر ما يحتاج إلى آليات تنفيذ والتصدّى إلى المنعرج الخطير الذى لا يعترف بالقانون الدولى الإنسانى كمرجع أساسى، وبضرورة تطبيقه واحترامه، والدول الإسلامية مدعوة إلى التمسك بالشرعية الدولية والقانون الدولى الإنسانى وتثبيت خصوصية القضية الفلسطينية باعتبارها آخر معركة للتحرير الوطنى ضد آخر نظام استعمارى استيطانى، وإلى تفعيل المجتمع المدنى فيها، وفى مقدمته جمعيات الهلال والصليب الأحمر التى يمكن أن تتحرك بفاعلية ومصداقية تؤهّلها للعمل مع الآخر، والتأثير على قراراته حيث إن المنظمات الأهلية عند الآخر تلعب دورا أساسيًا فى توجيه سياسة بلادها.

وأمام هذه الممارسات، والجرائم التى ترتكبها قوات الاحتلال ضد المدنيين الفلسطينيين، ماذا يمكن أن يكون عليه الوضع النفسى للمدنيين الفلسطينيين؟ هذا هو موضوع الفصل القادم بعون الله.

---

(١) زهير الشلى، هل تحمى الاتفاقيات الدولية ضحايا المنازعات من الآثار النفسية الناتجة عن الاحتلال على المدنيين فى فلسطين. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.